منظمة، متصاعدة باصرار منقطع النظير.

مع هذه الانتفاضة العظيمة وقف الفنان والمثقف الفلسطيني، والعربي بشكل عام، مندهشاً ومزهواً بها، حائراً متسائلاً عن دوره، وكيف له أن يلحق بهذا الحدث ليكون في مستواه، ثمّ يبدأ العمل والمشاركة، لكنه لا يلبث أن يعي أنه يلهث وراء الحدث ولا يتقدمه. انه حدث فاق التوقعات عند الكثيرين.

قال الروائي السوري حنا مينه (**الهدف**، نيقوسيا، ١٢/٣/١٩٨٩)، اجابة عن سؤال حول دور المبدع تجاه الانتفاضة:

«دور المبدع ان يسبق الحدث، لا أن يلهث وراءه. لكن ما حدث في الاراضي العربية المحتلة كان العكس؛ فالانتفاضة العظيمة، المتعاظمة، كانت الاسبق، حتى بالنسبة الى من يملكون حساسية هدهد بيننا. وقد أكّدت ان مجد الحجر من مجد السيف، حين يكون السيف حدّ الحدّ بين الحقيقة والباطل، وحدّ الحد بين النور والظلمة. ان زهرة لوز لا تصنع ربيعاً. وقد حسبنا، في البدء، ان الانتفاضة زهرة لوز في غير فصلها، او انها زهرة مفردة لا تشكل حديقة، لأننا، في غيم الاحباطات العربية، عجزنا عن رؤية الشمس المحجوبة عنا، ورسبنا في درس التاريخ، وتخصيصاً تاريخ البطولات الشعبية التي تنفجر كما العاصفة على غير توقع حتى من البحّار الذي امضى عمره في اليمّ. هكذا عاصفة الانتفاضة فاجأتنا، كتبت على صحائفنا البيض، بينما القلم يرتعش من فرط حرج».

لم يصل علمنا أن احداً من الفنانين التشكيليين في فلسطين المحتلة استطاع ان يتلمّس، او أن يتنبأ بوقوع الحدث العظيم المتمثل بالانتفاضة الشعبية الفلسطينية العارمة. من الممكن ان تكون هناك بعض الاشارات، او الدلالات، لفجر منتظر في لوحة هنا،او اخرى هناك. لكن اللوحة التي تناولت هذا الموضوع بصورة مباشرة وبيّنة لم تولد عند فناني الداخل قبل الانتفاضة.

الفنان سليمان منصور، من ابرز الفنانين في الارض المحتلة، رئيس الهيئة الادارية لرابطة الفنانين التشكيليين الفلسطينيين في فلسطين المحتلة، قال، في هذا الصدد (**صوت البلاد**، بلغراد، ١/٣/١٩٨٩): «ان الحدث كان كبيراً، وكان فاعلاً بصورة لم تكن في حيّز التوقعات، وان الاعمال الاولى للفنانين التشكيليين بعد اندلاع الانتفاضة لم تكن في مستوى الحدث العظيم؛ وحتى الآن، فان معظم الاعمال الفنية التي تمّ انتاجها لم تصل الى المستوى المطلوب الذي تفترضه التطورات المستجدة».

اثنان فقط من الفنانين الفلسطينيين الذين يعيشون في المنفى خارج فلسطين تناولا هذا الموضوع بشكل بيّن في اعمالهما الفنية. الأول الشهيد ناجي العلي الذي انتج عشرات الرسوم الكاريكاتورية متناولاً الحجر كسلاح في يد اطفال فلسطين في مواجهة العدو الصهيوني؛ والثاني كاتب هذه السطور، وقد سبق له التنبؤ بأحداث مماثلة في الماضي، فقد رسم لوحتين تناولتا هذا الموضوع بشكل واضح العام ١٩٨٤، لوحة حملت اسم اطفال الحجارة وصورت مجموعة من الاولاد والفتيات الصغيرات في ايديهم الحجارة كسلاح ينتظرون وصول دورية اسرائيلية الى مرمى حجارتهم في جو متوتر؛ والثانية باسم اطفال الدهيشة: عشرات من الاولاد والبنات يقذفون دورية اسرائيلية، في زاوية اللوحة، بالحجارة، وواحدة من البنات مصابة بطلقة نارية في كتفها.

ان أجواء الانتفاضة، وهذا التصدي البربري القمعي الرهيب الذي يواجه به العدو الصهيوني ابناء الشعب الفلسطيني المنتفض، لا تسمح كثيراً بنشاطات فنية تشكيلية مركزة. لكن هذا لم يمنع من التمكّن من اختراق هذه العوائق وتحقيق عدد من النشاطات التشكيلية. من ابرز هذه النشاطات، معرض أُقيم في قاعة مسرح الحكواتي في القدس (وهي قاعة شهدت كثيراً من المعارض الفلسطينية منذ انشائها) ضمّ مئة لوحة لخمسة وعشرين فناناً فلسطينياً وثمانية فنانين اسرائيليين. تناول الفنانون، في لوحاتهم، موضوعاً واحداً هو شهداء الانتفاضة، تخليداً لذكراهم، ولرفع صوت الاحتجاج في وجه السلطات الاسرائيلية المحتلة، وأُقيم المعرض في آب (اغسطس) ١٩٨٨.

احد العارضين فيه، تيسير بركات (من مخيم جباليا)، قال عن مشاركته في المعرض: «الامر ليس مجرد